ملحـق

الباب الرابع عشر من المقالة الأولى

« فى أوّل مَنْ غنّى من النساء فى الجاهليّة »

من كتاب

« حاوى الفنون وسلوة المحزون »

لابن الطَّحّان الموسيقى

مخطوط فى دار الكتب المصرية (٥٣٩ ، فنون جميلة)

مؤلف الكتاب :

ورد اسمه فى أول الكتاب كما يلى : « أبو الحسن محمد بن الحسنى المعروف بابن الطحان الموسيقى » ، ولكنّ فى الكنية والاسم خلافاً . فقد وردت كنيته مرّتين فى ثنايا الكتاب نفسه : « أبو الحسين » بدل « أبى الحسن ».فهو يذكر فى الباب الخامس والخمسين[1] المغنين فى الدولة الفاطمية، وبعد أن ينتهى من ذكرهم يذكر نفسه معهم فيقول : « . . . وأبو الحسين محمد بن الطحان ، مؤلّف هذا الكتاب ». ويذكر فى موضع آخر[2] ، عند حديثه عن الشعراء الذين مدحوه ومدحوا أباه ، أن شاعراً لقبه البديع قال يمدحه :

فلقد حويْتَ أَبا الحُسيْنِ فضائِلاً لمْ يحْوِها فيما مضَى إِسْحاقُ

وأما اسمه فقد مرّ بنا أنّه : محمد ، ولكن ابن سعيد فى المغرب[3] يذكر أنّه الملحّن بن الطحان ، بينما ذكر أن كنيته أبو الحسن. والظاهر أن الملحّن هو لقبه الذى غلب عليه لاشتهاره بالتلحين والموسيقى، وأن اسمه محمد ، كما ذكره هو نفسه فى ثنايا كتابه .

وأما حياته فلا نعلم عنها إلاّ القليل ، وقد ترجم له ابن سعيد فى المغرب فقال : « ذكر القرطبى أنّه كان آية فى صنعة التلحين ، وأن أكثر التلاحين المصرية صنعته ، ووجدت ذكره فى روزنامج المحادثة للشريف محمد بن الحسن الحسينى الأفساسى ، قال :غنيت بمصر لابن الطحان فى صنعته . . . وقال : شاهدته بمصر عند دخولى إليها فى آخر سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، وكان شيخاً جميل البزّة واللبسة ، راكب حمار من الحمر المصرية بسرج محلى ثقيل ،

---

(١) ظهر ورقة ٥٦ .

(٢) من ظهر ورقة ٧٣ – وجه ٧٥ .

(٣) مصورة الأستاذ الدكتور شوقى ضيف نقلا عن فيلم معهد المخطوطات بالجامعة العربية ورقة ١٢٣

وبين يديه مملوك . وله تقدّم عند الوزير اليازورى ، وكان يعلّم جواريه . وله كتاب جامع الفنون وسلوة المحزون ، فى ذكر الغناء والمغنين » .

فهو إذن من أهل القرن الخامس[١] ، واليازورى (— ٤٥٠ هـ) هو وزير المستنصر الفاطمى ، استوزره سنة ٤٤٢ هـ ، وجعله قاضى القضاة ، ولقّب بسيّد الوزراء . وابن الطحان نفسه يذكر أنّه كان يجالس الخليفة الظاهر الفاطمى ويحادثه ، والظاهر هو : ابن الحاكم بأمر الله بن العزيز بن المعزّ الفاطمى ، وقد ولى الملك من سنة ٤٠٤ — ٤٢٧ هـ .

ويبدو أن منزلة ابن الطحان فى الغناء والموسيقى كانت منزلة رفيعة . فقد مرّ بنا حديث القرطبى من أنّه كان آية فى صنعة التلحين . وأن أكثر التلاحين المصرية من صنعته . وأن الوزير اليازورى كان يقدّمه وقد عهد إليه بتعليم جواريه . وفى الكتاب نفسه أحاديث تشفّ عن مكانته ومكانة والده فى الغناء . فهو يذكر[٢] أنّه لم يلق من يعلم حدود الغناء ويعتمدها غير والده ، فقفا أثره فيها . ويشير فى كثير من المواطن إلى أن الخليفة نفسه كان يسأله عن كثير من أمور الغناء والتلحين[٣] . وأن رأيه كان يرجح آراء جميع المغنين ، فهو يذكر[٤] أنّ « مولانا الظاهر قدّس الله روحه قد اجتاز فى العشاريات بدار برجوان فسمع فيها صبيّة اسمها : حلم ، نصرانية لدار ابن علون الجهبذ . وهى دار تباع فيها الأغانى . وكانت هذه الصبية تتردّد إلى خمار بن نحرير المغنى تتعلم عنده » . ثم يذكر أن جميع المغنين قد ارتأوا فيها وفى صوتها وفى غنائها رأيًا خالفهم فيه ، فلما استبان للظاهر صواب رأيه ، سُرّ منه . وعهد إليه بتعليم الصبية .

ويذكر[٥] من أساتذته « شجاع غلام ابن تمامة وهو أحد من أخذ عنه الغناء » .

---

(١) ذكره جرجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية (٣ : ٢٦١) ، وجعله من العصر المغولى الذى يبدأ بسقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وذلك خطأ واضح .

(٢) ورقة ١١ .

(٣) كما فى ورقة ١٩ ظهر .

(٤) ظهر ورقة ٦٧ .

(٥) وجه ورقة ٤٠ .

وقد ذكر فصلاً كاملاً[١] عن الشعراء الذين مدحوا أباه ومدحوه . فأبو بشر مدح أباه ، وأما من مدحه فهم : عبد المحسن ، والبديع ، وأبو مشكور الحلبى ، وأبو الحسين القنوع الشاعر ، ومفضل بن سعيد المغربى ، وأبو الغنائم زيد ابن أحمد .

* * *

وصف النسخة :

وكتابه هو : « حاوى الفنون وسلوة المحزون » كما ذكر فى الكتاب مرتين ، أولاهما : فى صدر المقالة الأولى ، والثانية : فى صدر المقالة الثانية . ولكن ابن سعيد فيما نقله عن القرطبى يسميه : « جامع الفنون وسلوة المحزون » . ولم يرد له ذكر فى كشف الظنون ، وذكره بروكلمان باسم « حاوى الفنون وسلوة المحزون » ، وأشار إلى نسخة دار الكتب ولم يذكر غيرها فى المكتبات الأخرى .

والنسخة الأصلية واحدة[٢] ، نُقل عنها صورتان : إحداهما خطية[٣] . والأخرى مصورة فى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .

والنسخة الأصلية مقسَّمة إلى مقالتين . الأولى : علمية فى ثمانين بابًا . والثانية : عملية فى اثنين وعشرين بابًا . ومجموع أوراقها ١٠٩ من القطع المتوسط مكتوبة على الوجهين ، وبذلك تكون صفحاتها ٢١٨ . وليس على هذا الأصل تاريخ الكتابة ولا اسم الكاتب . ولكن النسخة الثانية رقم ٣٢ ، والتى رجَّحْتُ أنها منقولة عنها ، فى آخرها ما يأتى : « وكان الفراغ من استنساخه فى يوم الأربعاء العاشر من محرم الحرام سنة ١٣٢١ إحدى وعشرين وثلثمائة وألف هجرية » .

وفى الأصل خرم من الأول وقطع فى عدة مواضع وتبدأ بالورقة الثانية .

* * *

(١) من ظهر ورقة ٧٣ – وجه ورقة ٧٥ .

(٢) فى دار الكتب – رقم ٥٣٩ – فنون جميلة .

(٣) فى دار الكتب – رقم ٣٢ – فنون جميلة .

قيمة الكتاب :

لا يعنينى فى هذا المجال الكتاب جملةً ، ومن هنا لن أخوض فى الحديث عن قيمة ما تطرّق إليه من أبحاث نظرية وطرق عملية فى الموسيقى والتلحين . وإنّما تنحصر قيمته عندى فى أمرين :

أولهما : أنّه أفرد فصلاً خاصًّا بأسماء القيان فى العصر الجاهلى ، هو الباب الرابع عشر من المقالة الأولى ، فى أول من غنى من النساء فى الجاهلية .

وثانيهما : أن الكتاب قد ألف فى عصر مبكر لا يعدو النصف الأول من القرن الخامس الهجرى .

ومرجع هذه القيمة أنّه الوحيد من بين المخطوطات العربية التى عثرت عليها — بل من بين الكتب المطبوعة أيضًا — الذى يفرد بابًا خاصًّا بأسماء قيان الجاهلية . وقد ذكرت فى المقدمة ، عند حديثى عن المصادر ، العَنَاءَ الذى يتكبّده الباحث عن القيان والغناء فى العصر الجاهلى ، لأن كتب الأغانى والموسيقى خاصة ، وكتب التاريخ والأدب عامة ، لم تقفْ عند هذا العصر وقفةً تمكّننا من أن نستقى منها شيئًا عنه ، بل إنّها جميعًا كانت تكتفى بجمل قصيرة عابرة تتكرّر فيها جميعًا من غير أن تضيف جديداً . وكان ابن الطحان فى هذا الكتاب هو الوحيد — فيمن عثرت عليهم — الذى أفرد بابًا خاصًّا بقيان الجاهلية . وإنّما ألحقتُ هذا الباب ببحثنا لعاملين :

أولهما : أنّه مقياس يصحّ ، من بعض الوجوه ، أن يُقابَل به هذا البحث ، فيكشف عما بينهما من اتفاق واختلاف ، ويبين عما فى البحث من زيادات كثيرة عليه ، ونقص قليل عنه اضطرنى إليه أن جميع المصادر التى رجعتُ إليها قد أغفلته وصمتت عنه ، وأن الإشارة إليه فى فصل ابن الطحان هذا إشارة غامضة مقتضبة لا تُسْعِف على متابعة استقصائه .

وثانى العاملين : تعريفٌ بهذا الكتاب وبمؤلّفه ، لعلّ بعض الباحثين يتمّون ما بدأته ، ويستوفون ما لم أستطع استيفاءه .

الباب الرابع عشر

فى أول من غنى من النساء فى الجاهلية

بعاد وثماد[1] : كانتا فى زمان عاد الكبرى ، وخبرهما معروف ، فمن غنائهما[2] :

يا أُمَّ عُثْمَانَ نَوِّلِينَا قد يَنْفَعُ النَّائِلُ الطَّفيفُ

وبعدهما : عَنْجَهُور[3] ؟

وبعدها[4] : قينتا حُذَيْفَة بن بَدْر[5] .

وبعدهما : قينتا الحارث بن زهير[6] .

وبعدهما : وَهْرَام ، قينة خالد بن قيس[7] .

---

(١) انظر خبرهما وتحقيق اسميهما فى صفحة ٧١ إلى ٧٥ من هذا الكتاب .

(٢) لقد التبس الأمر على المؤلف ، فخلط بين هاتين القينتين وقينتى عبد الله بن جدعان اللتين سماهما بجرادتى عاد . ولا شك أن اللتين غنتا بهذا هما جرادتا ابن جدعان . فالبيت من قصيدة لأبى فرعة الكنانى ، والغناء لجرادتى عبد الله بن جدعان ، ولحنه من خفيف الثقيل — كما ذكر أبو الفرج فى الأغانى ساسى ٨ : ٢ .

(٣) فى القاموس (عجر) : « وعنجهور : اسم امرأة » . وفى اللسان (عجر) : « عنجهور : اسم امرأة ، واشتقاقه من العجهرة ، وهى الجفاء » .

(٤) فى الأصل : « وبعدها » .

(٥) ورد ذكر لإحدى قيان حذيفة بن بدر فى الأغانى — ساسى ١٦ : ٢٤ ، وصفحة ٦٠ من هذا الكتاب .

(٦) الحارث بن زهير بن جذيمة ، قتل خالد بن جعفر أباه زهيراً . وقتل الحارث حمل بن بدر أخا حذيفة بن بدر (الأغانى — ساسى ١٠ : ١٢ — ١٣) .

(٧) هو خالد بن قيس بن مالك بن العجلان الأنصارى الخزرجى شهد العقبة وبدراً وأحداً (السيرة — جوتنجن ١ : ٣٠٨ ، ٥٠٢ ، والإصابة ١ : ٩٦) .

وبعدها[١] : هند وفرتنا ، قينتا حُجْر بن الحارث[٢] .

وبعد ذلك : قيان عبد المسيح بنجران ، وفيهم يقول الأعشى[٣] :

وكَعْبَةُ نَجْرانَ حَتْمٌ علَيْ ... ك حتى تُنَاخى بأَبْوَابِهَا

نَزُورُ يَزِيدَ وَعَبْدَ المَسِيحِ ... وقَيْساً ، هُمُ خَيْرُ أَرْبابِهَا

وقيان يزيد بن عبد المدان .

وقينة عبد عمرو[٤] بن بشر[٥] .

وكانت بالمدينة قينة يقال لها : أم عمرو ، ولها يقول عمرو بن عدى[٦] :

تَصُدّ الكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمرٍو ... وكانَ الكأْسُ مَجْرَاهَا اليمِينَا

ومن القيان : جرادتا عبد الله بن جدعان : ظبية والرباب[٧] .

---

(١) فى الأصل : « وبعدهما » .

(٢) هو أبو امرئ القيس ، الشاعر الجاهلى . وهو حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ابن معاوية بن ثور ، وهو كندة (ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٦٢) .

(٣) فى الأصل :

وقوف بنجران حتم عليـ ... ـك حتى تناخى بأبوابها

تزور يزيداً وعبد المسيح ... وقيناهمـا خير أربابهـا

والتصحيح عن ديوان الأعشى : قصيدة ٢٢ ، بيت ٢٦ و ٢٧ .

ويظهر أن الضمير فى « فيهم » من قوله — وفيهم يقول الأعشى — يعود على الممدوحين الثلاثة ، وهم : يزيد وعبد المسيح وقيس ، وهم أساقفة نجران ، وكان الأعشى يزورهم ويمدحهم فيسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومى (الأغانى — ساسى ٦ : ٦٩ — ٧٠) .

(٤) فى الأصل : عمر .

(٥) عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد . زوج أخت طرفة بن العبد ، ومن المقربين إلى عمرو ابن هند . ولم أعثر على قينة لعبد عمرو خاصة ، وإنما الذى عثرت عليه أن قتلة وجبيرة وهريرة قيان لآل عمرو بن مرثد عامة ، وخص بعضهم هريرة وخليدة ببشر بن عمرو بن مرثد (راجع ص : ٢٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب) .

(٦) ص : ٧٥ — ٧٦ من هذا الكتاب .

(٧) ص : ٨٢ — ٨٥ من هذا الكتاب .

وقينتا الحضرمى : سيرين وصاحبتها[١] .

وأسماء وعَثْمَة وقَتْل وبوهة[٢] : قيان عبد الله بن مِقْيَس بن عدى ابن سهم[٣] .

وقيان جَبَلة بن الأيْهم[٤] ، لَحِقْن بالإسلام ، ومن غنائهن شعر حسان ابن ثابت :

بِيضُ الوُجوهِ كريمةٌ أَحْسابُهُمْ شُمُّ الأُنُوفِ مِن الطِّرازِ الأَوَّل

وقينة الأسود بن المطلب[٥] .

وسارة : قينة عمرو بن هاشم[٦] .

وقينة الأوسيين[٧] .

وقينة الأنصارى ؟

وقينتا عبد الله بن السائب المخزومى[٨] ، وهما صاحبتا الخبر المعروف فى

---

(١) لم أعثر على الحضرمى ، ولا على قينتيه فى غير هذا المخطوط ؛ ولعله عمرو بن الحضرمى المذكور فى سيرة ابن هشام ٢ : ٢٦١ و ٢٧٤ و ٢٧٥ .

(٢) فى الأصل : أسما وغتمه وقيل وبهود .

(٣) الذى عثرت عليه أن هؤلاء هن قيان مقيس بن عبد قيس بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، وليس عبد الله بن مقيس كما ذكره ابن الطحان (راجع ص : ٧٩ — ٨٢ من هذا الكتاب) .

(٤) ص : ١٣٢ من هذا الكتاب .

(٥) فى الأصل : بن عبد المطلب . وهو خطأ . والأسود بن المطلب ، ويكنى أبا زمعة ، كان من المستهزئين . وكان من أشراف قريش الذين مشوا إلى أبى طالب يسألونه أن يسلم لهم محمداً صلى الله عليه وسلم (الطبرى ١ : ١١٧٥ — ١١٧٦) وانظر نسب قريش : ٢١٨ . وذكر الواقدى أن اسم مولاة الأسود بن المطلب : عزة (انظر ص : ٨٨ من هذا الكتاب) .

(٦) ص : ٨٧ — ٨٨ من هذا الكتاب .

(٧) ورد ذكر قينة الأوسى فى كتاب « العود والملاهى وأسمائها » للمفضل بن سلمة — ورقة : ١١ ؛ ولست أدرى أهذه هى أو أنها غيرها ؟

(٨) عبد الله بن السائب بن صيفى بن عائذ المخزومى . قال البخارى : أبو عبد الرحمن بن أبى السائب ... كان يسكن مكة وكان قارى أهلها . . . مات بمكة فى إمارة ابن الزبير (الإصابة ٤ : ٧٤) .

الشارفين[١] اللذين عقرهما حمزة بن عبد المطلب[٢] .

وقُرَيْبَة وفَرْتَنا[٣] وحميدة : جوارى عبد الله بن سلام[٤] .

والفارعة وسعاد : قينتا السيصاب[٥] ؟

وأكثرهنّ لَحِقْنَ الإسْلام ، فصِرْنَ مُخَضْرَمَات .

فهذا جملة ما وجدناه ، ويمكن أن يكون غيرهن ممن لم نذكر .

---

(١) فى الأصل : « السارقين » وصوابه ما أثبتنا ، والشارف : الناقة التى قد أسنت .

(٢) ص : ٥١ — ٥٢ من هذا الكتاب .

(٣) فى الأصل : وفرسه وفرسا .

(٤) عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى (— ٤٣ هـ) صحابى أسلم عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، ونزلت فيه بعض آيات القرآن الكريم . مات فى المدينة ، وله فى الصحيحين ٢٥ حديثاً (تهذيب التهذيب ٥ : ٢٤٩) ولم أعثر على قيانه فى غير ابن الطحان .

(٥) هكذا فى الأصل ؟